# ثلاثة أزهار في معرفة البحار

## لأحمد بن ماجد ، الملاّح العربي

توافرت الأبحاث الحديثة عن الرُّبّان العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد ، فزاحت الستر عن آثاره المغمورة و وأظهرت ما له من فضل على حركة الاستكشاف في القرن الخامس عشر . وقد سبق لمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق أن عرّفت بابن ماجد ، ونوّهت برسائله العديدة في الملاحة ، ولا سيما « كتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد » . وكان المستشرق الافرنسي فرّان ( G. Ferrand ) قد نشر الكثير عن « أسد البحر الهائج » ، وأوضح انتفاع البرتغاليين به في رحلاتهم ، وعرض للمصطلحات الملاحية العربية ، ورجع بها الى أصولها . وأخرج الأستاذ محمد ياسين الحموي عام ١٩٤٧ بدمشق دراسة مستوفاة احتوت جملة ما بلغه الاستقصاء عن هذا النوتي العظيم .

وتتوثّق معرفتنا بابن ماجد بهذا الكتاب الجديد الذي نشره في مطلع عام ١٩٥٧ معهد الاستشراق في المجمع العلمي للاتحاد السوفياتي . وعنوان الكتاب المثبت على الغلاف هو : « ثلاثة أزهار في معرفة البحار » . أما العنوان المطبوع على الصفحة الأولى فهو :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« ثلاث راهمانجات المجهولة »

وقد جاء تحت هذا العنوان :

لأحمد بن ماجد ربان رحلة ڤاسكو دي جاما

وهي مأخوذة عن النسخة العربية الفريدة

التي توجد في مكتبة معهد الاستشراق

عني بنشرها وتحقيقها وترجمتها

الى اللغة الروسية ووضع الفهارس

ثيودور شوموڤسكي

ويبدو لي أن العنوان الثاني من وضع الأستاذ الناشر . ولعلّ الصواب فيه :

« ثلاثة راهنامجات مجهولة »

وفي القاموس المحيط : الراهنامج كتاب الطريق ، وهو الكتاب يسلك به الربابنة البحر ، ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها . وهو يقابل كلمة ( Itinéraire ) بالفرنسية .

والقسم الأول من الكتاب يتضمّن تصويراً فوطوغرافياً لهذه الراهنامجات ، وهي ثلاث رسائل مخطوطة منظومة شعراً . وأحسب أن القارئ العربي يود لو كانت هذه الرسائل قد نُشرت بالحرف الطباعي ، مع الاجتهاد باتمام نقصها ، واصلاح خطأ النسّاخين فيها ، وتذييلها بهوامش موضّحة تلقي الضوء على ما فيها من مصطلحات بحرية وفلكية ، وتضبط أسماء الأماكن وتحدّد مواقعها ، وتشير الى ما يقابلها في هذا العصر .

وقد ألحق الأستاذ المحقق بهذا القسم مصوّراً ملوّناً لمراحل الرحلات التي تضمّنتها الرسائل ، كتب عليها : « صورة بحر الهند ولها البنادر التي ندخها أحمد بن ماجد » . وفي القاموس نَدَخَ : صدم ، يقول راكب البحر : ندخنا ساحل كذا ، وأندخنا المركب الساحل ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويطيب لي أن أطري الجهد الفذّ الذي اضطلع به الأستاذ الناشر في عمل هذا المصوّر ، ووضع الأسماء عليه في مواضعها المحقّقة أو الموهومة ، معتمداً في ذلك على بعض الباحثين أحياناً ، وعلى التحرّي الذاتي أحياناً أخرى . ويزيد من فضله أن المعاجم الجغرافية المتوفرة لا تذكر إلا القليل من هذه الأسماء . ومعجم البلدان لياقوت يرجع الى أوائل القرن الثالث عشر ، ولا نجد فيه سوى النزر من الأماكن الواردة في رسائل ابن ماجد .

ويخيّل إليّ ان الكسب العلمي من هذا المصوّر يزدوج لو أن واضعه الفاضل أرفق بكل اسم قديم مقابله في عرف الجغرافيين المحدثين ، إذن لكنا عرفنا مثلاً أن جزيرة الغور هي فورموزة ، وان الفالات ليست سوى جزر لاكديف ، وديبجات هي جزر مالديف ( وكان ابن بطوطة يسميها جزائر ذيبة المهل ) ، وان جزيرة القُمر هي مدغسكر [1] .

وليغفر لي الأستاذ الناشر أن أخالفه في تحقيق بعض المواقع ، كما أثبتها على المصوّر ، اجتهاداً منه أو اقتباساً . فقد جاء بين يدي رسالة ابن ماجد الأولى ذكر ساحل الهند الغربي ، وما عليه من الكُوَر والفُرَض ، بدءاً من جنوبه حتى شماله ؛ وقد عدّ عليه من الأسماء بالترتيب : مليبار ( مالابار ) وكبلن ، وجوزرات والسند ؛ ورُسمت كبلن مهملة الباء ، فأثبتها الناشر كَبَلَن ووضعها في جزيرة جاوة ، على آلاف الكيلومترات من الهند . والذي يتراءى لي أنها كَلِيَن ، ورسمها بالفرنجية Kalyan ، وهي الى اليوم قائمة شمال ساحل الملابار قرب بومباي . وغير بعيد عنها في الشمال تقع كورة الكُجَرات ( Gujarat ) ، ولا مجال للشك في أنها هي الجُوزُرات ، وتليها بلاد السند .

(١) يذكر ياقوت في معجمه ( المجلد السابع ، ص ١٥٩ ) أن القُمر جزيرة في وسط بحر الزنج ليس في ذلك البحر جزيرة أكبر منها . ولا يزال اسم القُمر يطلق على مجموعة جزر صغيرة قائمة في شمال مدغسكر ( Comores ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويبدو لي أيضاً أن مرفأ حَمِضَة وجزر الفُصَيليّات في البحر الأحمر قد رُفعت على المصوّر الى أواسط الحجاز ، وهي من ساحل اليمن الشمالي أو العسير . فالفصيليات تقع إزاء مرفأ شُقيق ، وتعرف الآن بالوَصَليّات . وأما حمضة فيذكرها ياقوت في أكثر من موضع ، ويقول انها في أرض اليمن من جهة قبلتها[1] ، وقد وضعها الأستاذ الناشر محل فرضة الليث جنوبي جُدّة . وهي الى ذلك مشكولة في فهرس الأماكن حَمْضَة ، وعند ياقوت بكسر الميم . وأرى من ناحية أخرى أن الألف واللام يجب إسقاطهما من كلمة القُلزُم في جملة « بحر القلزم العرب » المطبوعة على المصور فوق البحر الأحمر .

ويزدان القسم الأوّل من الكتاب أيضاً بدائرة الجهات الأصلية والفرعية بالنسبة الى مواقع النجوم ، استنتاجاً من رسائل ابن ماجد . وهي الجهات التي تدلّ عليها الابرة المغناطيسية أو الحُكّ[2] . وقد ذيّل الناشر هذه الصورة بجملة لا تسلم من لبس ، فكتب : « ٣٢ خنّاً من الجدول أو دائرة الأرياح العربية » . والخنّ هنا هو الخانة أو الموقع ، ويستعملها ابن ماجد مجموعةً على أخنان ، وليس له بهذا المعنى أصل في العربية . والأرياح هي كالرياح جمع للريح . والقصد منها هنا مهابّها بالنسبة الى منازل النجوم والقمر . واصطلاح « دائرة الرياح » أو « وردة الرياح » مألوف عند المحدثين بمعنى دائرة الجهات ( Rose des vents ) ، وتنقسم الى ٣٢ قسماً .

والقسم الثاني من الكتاب يشتمل على ترجمة رسائل ابن ماجد الى الروسية ، وعلى عرض لتصانيفه ؛ وينتهي بفهارس للمصطلحات الملاحية والأسماء الجغرافية والفلكية الواردة في الرسائل ، وجدول بالقوافي والأوزان الشعرية ، وثبت بالمصادر التي رجع اليها الناشر واعتمد عليها . وغنوة هذا القسم مقصورة على من يعرفون اللغة الروسية . وليس بوسعنا أن نعلّق عليه بشيء .

(١) المجلد ٣ ، ص ٣٤٢ ، المجلد ١٠ ، ص ٥٢٣ .
(٢) في القاموس المحيط الحُكّ : إبرة الملاحين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما الرسائل المصوّرة فلا يعسر على القاري الجزم بأنها متفاوتة الخطوط ، ومجانفة في أكثر أبياتها لأبسط قواعد اللغة وموازين العروض . وسيتحقق القاريء بنفسه أن الخطأ فيها لا يقع وزره على النسّاخين ـ في الغالب ـ ، بل على صاحب الرسائل . وهي ـ إن صحّت نسبتها اليه ـ لا تشهد بأنه « شاعر القبيلتين » كما كان يجب أن يلقب نفسه . .

ولا ندري ما قصد اليه المؤلّف في نعته نفسه برابع الثلاثة ورابع الليوث في المقدمات التي استهلّ بها رسائله . ولعله أراد من سَبَقه من البحّارة المغامرين ، أو أنه عَنى أجداده ، وكلهم ملاّح بارع .

واسم الرسالة الأولى « الأرجوزة السُفالية » نسبةً الى سُفالة ( Sofala ) ؛ وهي الى اليوم مدينة على شفير افريقية الشرقية البرتغالية ( موزامبيق ) ، قبالة جزيرة مدغسكر . ويقول عنها ياقوت انها آخر مدينة تُعرف بأرض الزنج ( ج ٥ ، ص ٨٨ ) .

وتستهدف هذه الأرجوزة هداية الربابنة عبر المحيط الهندي ، بين ساحل الهند وسواحل افريقية الشرقية ، وتبيان ما يقتضي ذلك من معرفة الاتجاهات ( الأخنان ) والقياسات والمراحل ( المجاري ) والطرق ( الدير ) . وهي تشتمل على ٨٠٥ أبيات من بحر الرجز ، مطلعها :

الحمد لله الذي أنشا الملا من عدم جلّ تعالى وعلا

ويضيق بنا المجال عن تسقّط زلاّت المؤلّف في هذه الرسالة ، وتتبّع ما خالف به أقيسة اللغة وأبحر النظم ، حتى ليتردّى أحياناً كثيرة الى مستوى الشعر العامي الفج ، بالاضافة الى ما مسخه الناسخون وما استعمله الناظم نفسه من كلمات عامية أو أجنبية .

والحدس بأن المؤلف توخّى عن قصد فائدة جمهرة الملاحين ، فكتب لهم بلغتهم ، وخاطبهم وفق مداركهم ، وانه لم يرد أن يُخرج للمثقفين تحفة فنية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو أدبية ، وان تسكين أواخر الكلم ليس إلا من دواعي هذه المحاولة في التبسيط ، أقول إن هذا الحدس يُضعفه هنات أصيلة في النص ما كان تقويمها يحول دون الغاية المرجوة . ولعل ابن ماجد كان في الواقع خرّيت بحار ، لا صانع أشعار ، وإن رُويت له أبيات قليلة تسمو إلى مرتبة الشعر الجيّد .

وهذه بعض الأمثلة من أوائل الأرجوزة :

الى السواحلْ ونواحي القُمرِ الى سُهالةْ استمع واحـرِ (ب٦)
مجراك في الجوزا معاً والثيرِ على قَدَرْ ريحك في المسير (٨)
أو زَحْن أو طوفان أو أمطارْ فذاك بالتدبير بالأسفـارْ (١٣)
واجرِ على السِماك ثم الكاثرْ حتى يزيد الجاه اصبعْ وافرْ (٢٢)
موسمه السبعين في خروجهْ وفي الثانين يكون ولوجهْ (٢٥)
ولم يلج من سار في التسعين إلا أن يكونْ في نادر السنين (٢٦)
تلقا به السُهيل والظليمْ ستةْ ونصف كن به عليمْ (٢٩)
أربعْ أصابعْ في قياسٍ واحدْ وثلثْ أيضاً فوقهم زوايدْ (٣٢)
ورتّب المجرا مع القياسِ في نتخة[1] البر فكن ذوا بامي (٣٣)
ربان لا ينقصْ ولا يزيدْ وردّ في الاكليل بالتوكيدْ (٤٢)
يزيد في المِرزَم في التريفا اصبعُ إلا ربعُ يا حريفـا (٦٦)
وقس على المعقـل والمربّعِ فهن معلوماتْ معكم ومعي (٦٩)
يكونْ ستةْ ثم الأربعْ اصبعِ مثل قياس الأصل قسه واسمعِ (٧٩)
ان قياس النجوم الطالعـةْ والغاربات فيهـم المنازعةْ (٨٠)
ذكرتهم لتعرف الأفلاك ! وسيرذي الكواكب الزواكي (٨٣)

والقصيدة الثانية هي المَعْلَقية ، وذلك نسبة الى مَعْلَقَة ( ملعقة ) ، أي شبه جزيرة مالاقا ، ويستعمل ابن ماجد هذه التسمية أيضاً . وهو بعدّد المراحل

(١) يستعمل ابن ماجد نَتَخَ بمعنى نَدَخَ أي رسا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اليها من الهند ، فيقول في مقدمتها : من بر الهند الى بر سيلان ، وناك باري (وقد رسمها الناشر على المصوَّر نال باري ، والأصل أصح ، وهي تُعرف الى اليوم بجزر نيكوبار) ، وشمطرة ، وبر السيام ، وملعقة ، وجاوه ، وما كان في طريقهم من الجزر والشعبان ومناتخهن وصفتهن والبلد فيهن ، وقفاصي (مضيق مالاقا) وغيرها ، وجميع ما يتعلق به المشارق والجنوب والغور والصين ، الى حدود الحرات الشارفة على البحر المحيط الذي لا خلفه سوى جبل قاف (امريكا ؟) .

وأبيات القصيدة ٢٧٣ ، وهي من الرجز أيضاً ، ومطلعها :

عزمت والعزم حميد في السفر لا سيما من بلدة فيها ضرر

وهي كأختها الأولى أشبه بزجل العوام ، وتماثلها في ضعف السبك وعوج اللغة وتعثر النظم ، وتتزيّد عليها في إقحام ياخي (يا أخي) وياخواني (يا إخواني) في عشرات المواضع .. وحسب القارئ هذه الأمثلة :

إن كان في هذا النجوم نفسا شرّق وأشمل لاتكونْ أخرسا (١٤)

وان تكن ياخي بعيد عنها (١٨)

وفيهم الضيق فكن بالعالمِ حتى تكون للطريق لازمي (٣١)

أرمي بها إن شبت أخذَ الماء والما تحت القطعة الكبرا (٩٩)

وفوقهن جبلاً معروفا له سنام وبه موصوفا (١٥٠)

والماء يسقي داخلْ كن عارفْ عندكْ وإلا اطرحْ ولا تخالفْ (١٩٠)

الخ ...

وآخر الرسائل وأقصرها هي التائية ، وتصف طريق الملاحة بين جُدَّة وعدن (حَمِضة ، الفُصيليات ، صبيان ، الحُديدة ، أرض الحُصَيْب [زَبيد] موشج ، بُقعة ، جزيرة زُقَر ، عارة) . وتقع في ٥٥ بيتاً ، وبحرها الطويل ، ومطلعها :

سرت نسمة الفردوس من أرض مكةٍ بريح الصبا فاشتاقت السير حلبتي



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهي بالجملة أقوم لغةً ، وأمتن رصفاً ، ولكنها لا تبرأ من سَقَط ، أمثال :

مسافتهم زامين والريح طيب كذا سنة للزقر كن متلفت (٣٢)

خصوصاً إذا ما كان لبلك ظلمتي (٣٥)

* * *

وبعد ، تحمد العروبة للأستاذ شوموڤسكي توفره على بعث تراثها ونشر مآثرها ، وقد بذل في إخراج هذا الكتاب أكرم الجهد .

( دمشق ) الدكتور عزة النص